**السنة الأولى جذع مشترك**

**مقياس: تاريخ الحضارة الانسانية**

**الأستاذ المسؤول عن المادة: أ. د عبيد نصرالدين**

**المحاضرة الرابعة: الحضارة الفينيقية: نشأتها- الفنون والعلوم**

- **الحضارة الفينيقية**

الفينيقيون هُم في الأساس مجموعات من القبائل الكنعانية التي استقرّت منذ الألف الثالث قبل الميلاد على السواحل الشرقية للبحر المتوسّط من شمالي مصب العاصي وحتى سيناء، ومن العقبة والبحر الميت وحتى الجزيرة الفراتية، وعرفت المنطقة السّاحلية بإسم بلاد كنعان. أما تسمية “الفينيقيين” فمن المُرجّح أنّها أُطلقَت على البلاد التي شهدت ولادة الأرجوان الذي عرفته مُدُن الساحل، وأطلقه اليونانيون على العاملين بهذه التجارة.

يقول “فيلون الجبيلي” إنّ الفينيقيين كانوا يسكنون فينيقيا منذ القِدَم. ويقول “هيرودوتس” إنّهم من أصلٍ أرتيريٍّ أتوا من البحر الأحمر. كما أن هناك مَن يقول إنّ الفينيقيين وسائر الشعوب السامية قد انتقلوا من شبه الجزيرة العربية وقد سلكوا إلى المتوسط أحد الطّريقين: الأوّل عبر الخليج العربي وجنوبي العراق فصحراء سورية؛ والثاني نحو الشاطئ الغربي للجزيرة العربية بمحاذاة البحر الأحمر ومنه اتجّهوا شمالاً إلى فلسطين ولبنان وسورية.

تقع فينيقيا في الطرف الغربي لقارّة آسيا وتمتدّ من جبل الكرمل جنوبًا إلى أوغاريت قرب مصبّ العاصي شمالاً. مناخها مُعتدل إلى باردٍ، أمّا حيواناتها فكانت تعيش في غاباتها الممتدّة على السفوح الغربية للجبال، وقد انقرض معظمها. كما كان لطبيعة الأرض وتضاريسها ووعورة مسالكها الأثر الكبير في حياة السكان واستقرارهم. وأنشئت المُدُن مبتعدةً الواحدة عن الأخرى مُسيرة يوم واحد برًا أو بحرًا.

أنشأ الفينيقيون حوالى 25 مدينة كانت في معظمها مستقلةً الواحدة منها عن الأخرى، وكان أشهر هذه المُدُن: صور التي تألّفت من مدينتين: بحريةً بُنِيَت على صخرٍ بحريٍ وقامت بالمقابل لها مدينة عُرِفَت بصور البريّة.

أما صيدا فكانت تُعرَف ببنت كنعان وبُنِيَت على رأسٍ تقابله في البحر جزيرة صغيرة. وجبيل بُنيت على تلةٍ قرب الشاطئ وهي أقدم المدن الفينيقية، يعود تاريخها إلى أكثر من خمسة آلاف سنةٍ. وأرواد بُنِيَت على جزيرة البحر، طولها 700م وعرضها 400م ونشأت قبالتها على الساحل مدينة عمريت. أمّا أوغاريت فقد نشأت قرب اللاذقية وامتدّ نفوذها إلى المناطق الشمالية والشرقية من سورية.

وهناك أيضًا مدن فينيقية أخرى ما زالت حتى اليوم تحمل اسمها الفينيقي كاملاً أو مُحرّفًا ومنها: عكا، الصرفند (صرفتا)، الجية، بيروت، البترون، وطرابلس.

لم يُشكّل الفينيقيون عبر تاريخهم الطّويل مُجتمعًا واحدًا، بل تمتّعت كل مدينةٍ من المدن الفّينيقية باستقلالها ونظامها الخاص. ويتبّين من المعلومات حول المجمتمع الفينيقي أنّه كان مُجتمعًا هرميًا مرتكزًا على الثروة والمكانة الإجتماعية وليس على النّسب. فلم تَكُ طبقات المجتمع الفينيقي مُقفلة، بل كان بإمكان أيّ فينيقيٍّ أن يصل إلى أيّ مركزٍ أو مقامٍ اجتماعيٍ إذا توفّر فيه شرط الغنى. وعلى هذا الأساس انقسم الفينيقيون إلى ثلاث طبقاتٍِ هي: الطبقة العليا وفي طليعتها أهل الحكم والمجالس، مجلس الشيوخ ومجلس الشعب، ثم رجال الدّين الذين كانت لهم مكانة دينية واجتماعية عالية، إضافة إلى قادة الجيوش. ثم طبقة الصّناعيين والتجار، وكانوا يتجمّعون على شكل هيئاتٍ مهنيةٍ يُعرَف رئيس كلّ منها بالرّب أو السيد. أما الطبقة الثالثة فكانت عامة الشعب، وهي شكّلت السواد الأعظم من المجتمع الفينيقي، وتالّفت بمعظمها من العمال والمُزارعين.

أمّا فيما يتعلّق بنظام الحكم، قبل نشأة المدن، فكان نظامًا قبليًا حيث كان شيخ القبيلة هو سيّدها وزعيمها وهو الحُكم والحَكم فيها. بعد ذلك تطوّر النظام القبلي نتيجةً للإستقرار ونموّ الزراعة والتجارة، وأفرز واقعًا سياسيًا جديدًا فتحوّل إلى نظامٍ مَلَكيٍّ.

أمّا النظام الجمهوري، فقد عرفت بعض المدن الفينيقية هذا النظام. إلاّ أن مدينة قرطاجة التّي بنوها في تونس اعتمدت هذا النظام منذ نشأتها واستمرّت عليها.

ينقسم تاريخ فينيقيا السياسي إلى ثلاثة أقسامٍ هي:

1- فترة التاريخ الفينيقي القديم وهي فترة ما قبل الإستقلال، وتميّزت باستقرار الفينيقييّن وانفتاح مدنهم على البلدان المجاورة في مصر وبلاد ما بين النهرين وجزر بحر إيجة.

2- فترة الإستقلال والإزدهار والتي تميّزت بتنازع مصر وبلاد ما بين النهرين للنفوذ، وظهور الخطر الحثّي، وتقلص خطر القوى الخارجية عن مدن الفينيقيين التي نعمت بالإستقلال وبلغت درجةً عاليةً من التّطور الإجتماعي والحضاري والسياسي والإقتصادي.

3- فترة الضّغوط الخارجية حيث عاد الخطر يُهدّد من جديد المُدن الفينيقية ممثَّلاً بالخطر الأشوري. وتعرّض الفينيقيون بعد ذلك للخطر الكلداني أيام نبوخذنصّر، وخضعت فينيقيا بعدها للإحتلال الفارسي. واستقبل الفينيقيون الإسكندر المقدوني اليوناني كمُخلّصٍ، فدخل معظم المدن الفينيقية سِلمًا باستثناء صور.

إن مصادر الدّيانة الفينيقية هي الكتابات التي وُجِدَت في المدن والمتعلقة بأحداث ذات طابع دينيّ، وهذه الكتابات قليلة، لا تذكر سوى بعض أسماء الآلهة. فقد عَبَد الفينيقيون، كغيرهم من الشعوب القديمة، مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر، ولاحظوا تقلّبات الطقس وتعاقب الفصول فنسبوا ذلك إلى قوى خارقة وخفية عجزوا عن تفسيرها فألهوها واحترموها ومنها الهواء والبحر والنهر والغيم والمطر والبرق والرعد. ومن أبرز مظاهر العبادة عند الفينيقيين أنها كانت تدور حول الخصب وعبادته، والبكاء والنواح على موت إلهة الخضرة عشتروت أيام الصيف، والابتهاج بقيامة الإله بَعل من الموت عندما تهطل الأمطار.

والفينيقيون شعب مُتديّن قدّموا لآلهتهم الصلوات وطقوس العبادة والإحترام. فقليلاً ما كانوا يذكرون آلهتهم بأسمائها، بل رمزوا لها من خلال صفاتها وذلك احترامًا لها وخوفًا منها. وكانت العبادة تُقام في هياكل خاصةٍ أعطى الفينيقيون اهتمامًا بالغًا لإختيار أماكنها. أما أشهر آلهتهم فهي:

– إيل وهو كبير الآلهة عند الفينيقيين والأعظم قدرًا ومكانةً.

– البعل ومعناه الرّب أو السيد، يعمل للحياة ويكره الموت.

– الداجون هو إله المطر والمجاري المائية.

– أدون أو أدونيس أو أدوني الذي اشتهرت عبادته في مدينة جبيل.

– موت هو إله الجفاف والموت.

– ملقارت أي ملك القرية أو المدينة. كان إلهًا لمدينة صور.

– أشمون هو إله الشّفاء.

– عشتروت هي إلهة الحب والجمال.

– البعلات، مفردها بعلة، وهي زوجة البعل.

ومن مظاهر تكريم الفينيقيين لآلهتهم تخصيص يومٍ معيّنٍ أو أسبوع معيّن في السنة يحتفلون فيه بعيد إلهٍ معيّنٍ، فيقيمون لذلك احتفالات دينية يتوافد الناس لحضورها من مختلف المناطق.

لم يعتبر الفينيقيون أن الموت هو نهاية الإنسان، كما آمن بذلك معظم سكّان بلاد ما بين النهرين. كما لم يؤمنوا بعودة الروح إلى الجسد، كما آمن بذلك المصريون. لكنّهم اعتقدوا أن النفس خالدةٌ وأن القبر هو بيت الإنسان الأزلي، وأن الروح تخرج من الجسد لكنّها لا تقطع علاقتها به إنّما تبقى بجواره. لذلك فقد وضعوا في قبور موتاهم إلى جانب الجثة بعض الأدوات والحلي.

عمل الفينيقيون لبناء اقتصادٍ مزدهرٍ، فاعتنوا بالزراعة واستغلوا الثروة الحرجية وربّوا الماشية وابتكروا صناعات تتلاءم مع المواد الأولية المتوافرة في بلادهم، كما مارسوا التجارة ومهروا فيها.

اعتبر الفينيقيون الزراعة المورد الأساسي لكسب عيشهم، فنوّعوا زراعاتهم تبعًا لموقع الأرض ونوّعوا تربتها، واعتمدوا على مياه الأمطار لريّها. ورغم كل الجهود التي بذلها الفينيقيون، فقد جاء محصولها غير كافٍ لتأمين الإحتياجات المحلّية. وكانت أهم المزروعات: الحبوب من قمحٍ وشعيرٍ والبقول والأشجار المثمرة كالكرمة والزيتون والتين والرمان والنخيل.

استعمل الفينيقيون الأدوات الزراعية التي كانت معروفة في أيامهم، فكان من أدواتهم: المحراث، والنير الخشبي، والسكة والمذراة والمنجل والغربال وغيرها من الأدوات. كما اعتنوا بتربية الدواجن، كالأرانب والدّجاج والإوز، وكذلك تربية النحل.

استفاد الفينيقيون من الثروة الحرجية التي كانت تغطّي قمم وسفوح جبالهم فأخذوا منها الأثمار والصمغ والأخشاب، ومن أشجار الأرز والصنوبر والسنديان بَنوا سقوف بيوتهم كما صنعوا منها أثاثهم وسفنهم.

انصرف قسم من السكان إلى الإعتناء بالصّناعة كمورد عيش، وأخذوا الصّناعات التي كانت معروفة عند جيرانهم كالمصريين فتعلموها. وأهم الصناعات التي عرفها الفينيقيون: صناعة النسيج. فكانت هي الأكثر أهمية عند الفينيقيين، فأنتجوا الثياب الملوّنة بلون الأرجوان المُستخرج من صدف ا”لموركس” والتي تراوح لونها بين اللون الزّهري والبنفسجي القاتم. بالإضافة إلى صناعة الزجاج التي أخذوها عن المصريين فطوروها وحسنوها، فصنعوا منها الأباريق والكؤوس والأواني ورسموا عليها ولوّنوها. هذا بالإضافة إلى صناعة السفن وصناعة الأثاث وبناء الهياكل وصناعة المعادن والعاج والخزف.

حقّقت التجارة ربحًا وفيًا للفينيقيين أسهمَ في رفع مستوى معيشتهم، كما خلقَت فرص عملٍ للعديد من الشباب الفقراء الذين عملوا لدى التّجار الأغنياء واكتسبوا من إقامتهم في المستعمرات مالاً وفيرًا.

وأكسبت التجارة البريّة والبحرية الفينيقيين خبرة وذاع صيتهم، وأفادت الحضارة الإنسانية من تجارة الفينيقيين الذين مكنتهم براعتهم في التعامل مع الشعوب في جميع المناطق من نشر الحرف والمعرفة وتسهيل تبادل العلم والخبرات.

تأثّر الفينيقيون بالكتابات التي سبقت أبجديتهم وهي الكتابة الهيروغليفية التي اعتمدها المصريون والكتابة المسمارية التي اعتمدها سكان بلاد ما بين النهرين وكلتاهما معقّدتان. فبَسّط الفينيقيون في جبيل الكتابة الهيروغليفية بأبجديةٍ مبتكرةٍ، رموزها سهلة الكتابة، كما بَسّط الفينيقيون في أوغاريت الكتابة المسمارية.

لم تكن الأبجدية الفينيقية مجرّد صورة مختزلة أو رسم يرمز إلى شيءٍ، إنّما كانت اختراعًا واستنباطًا واصطلاحًا علّمه الفينيقيون بعد ذلك إلى اليونانن الذين نشروها في سائر أقطار العالم، ولذلك أطلق العلماء على الأبجدية الفينيقية إسم “أم الأبجديات في العالم”.

أمّا التراث الأدبي عندهم فقد بدأ منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وامتدّ على مدى ألفيّ سنة. وفيه نُظُم دينية وقوانين عائلية وسياسية: ملاحم وأساطير ومراسلات دولية ورسوم مالية أو عينية ومعاملات تجارية. فالنّصوص الدينية كانت تتّميز بذكر الآلهة وتدخّلها في حياة البشر. والنصوص السياسية أشهرها على الإطلاق رسائل تل العمارنة، والنصوص المدفنية تبدأ بذكر الميت ومَن صنع له التابوت (ناووس أحيرام).

أمّا أهم ما تركه التراث الفينيقي، فقد تمثّل في الملاحم، وأشهرها “ملحمة عنت” و”ملحمة كيريت” و”ملحمة دان إيل” و”أسطورة كار واقهات”، ما يدلّ على أن الفينيقييّين كانوا شعبًا عرف الفن الملحمي في العالم وتأثّر بهم في هذا المجال اليونانيون تلامذة الفينيقيين في الأبجدية.

اهتمّ الفينيقيون بعلم الفلك من خلال علاقتهم بملاحتهم البحرية فتوصّلوا إلى اكتشاف النجم القطبي الدب الأصغر والذي سمّاه اليونانيون “النجم الفينيقي”. وتعرّفوا إلى مبدأ المد والجزر خصوصًا في المحيط الأطلسي، كما أنّهم قسّموا الأرض إلى خطوط طولٍ وخطوط عرضٍ لتحديد الأمكنة وتسهيل الإنتقال. وكانوا بذلك أوّل مَن وَضَع ورَسَم خطوط الطول والعرض على الخرائط.

وكَونُ الفينيقي تاجرًا حُتّم عليه أن يكون مُلمًا بالحسابات لضبط موارده ومعرفة مدى ربحه أو خسارته، لذلك فقد أتقن علم الحساب مستخدمًا حروف الأبجدية كأرقامٍ حسابيةٍ.

كذلك اعتنى الفينيقيون بالطبّ واستفادوا من تنوّع الأعشاب في بلادهم لإيجاد العقاقير المناسبة.

كذلك اهتمّوا بعلم الكيمياء من خلال المواد التي كانوا يستعملونها في تحضير مادة الصباع الأرجواني والتي احتفظوا بسرّ تركيبها، بالإضافة إلى فنّ العمارة وهندسة البناء وفن النحت والفنون الكمالية كالتماثيل البرونزية والأواني الفضية وأوانٍ أخرى مُمَوّهة بالذهب والحلى العاجيات والنقود والزجاجيات.

* **إنجازات الفنيقيين**

قدّم الفنيقيون العديد من الإنجازات، ومنها: امتاز الفنيقيون بمعرفتهم في المجال البحريّ. عمل الفنيقيون بصباغة الأقمشة باللون الأرجواني والذي كان يسمى باليونانية "فينيسيا"، وكان يتم الحصول عليه من المحار. كان الفنيقيون يعبدون آلهة الخصوبة، كما وعبدوا آلهات متعددة، وأطلقوا أسماء مختلفة عليها، ومن هذه الأسماء: بعل، وستارت، وأدونيس، وكانوا يقدّمون أول مولود جديد سواء من البشر أم من الحيوانات كقربان إلى آلهتهم. أسهم الفنيقيون في تطوير الكتابة بالأحرف الأبجدية، والتي كان لها دوراً في تطوّر الأدب اليونانيّ، كما تعدّ الكتابة الأبجديّة أكثر تطّراً وسهولة من الكتابة المسمارية والهيروغليفية الغامضة والمعقّدة. تميّز الفنيقيون بالعمل في المجوهرات، والزجاج الذي عثر عليه في نمرود الواقعة في العراق، والذي يصوّر الرجل النوبيّ المتعرّض لهجوم أسد، كما عملوا في الطين، والمرمر، والنقش الفينيقي العاجي المصنوع من الأحجار الكريمة، والعديد من المعادن، والقشور، والخشب الموجود في جميع بلدان البحر الأبيض المتوسط، والمناطق المجاورة لآسيا الصغرى. اشتُهر الفنيقيون بعمل المنسوجات، وتصديرها على نطاق واسع، وخصوصاً المنسوجات ذات القماش الأزرق والأرجواني. ازدهر الفن الفينيقيّ وتطوّرت المنطقة الفنيقيّة كمركز تجاريّ رئيسيّ في العالم القديم، حيث عكس هذا الفن تأثيرات مصر، وسوريا، واليونان، كما تمثّلت الآلهة الفينيقية بالزيّ المصريّ والسوريّ، وكانت هذه الفنون محاطة بالرموز الأجنبية التي استخدمها الفنانون، من أجل توضيح المعتقدات الأصليّة للشعوب القديمة. سقوط الدولة الفنيقية لم تتمكّن المدن الفينيقيّة من الصمود أمام هجمات الآشوريين، وسقطت الدولة الفينيقيّة في القرن السادس، ولكن مع ذلك فقد قدّمت الدولة الفينيقيّة الكثير للفرس، وتمّ استيعاب الفنيقيين تدريجيّاً في الحياة الفارسيّة، حيث كان البحارة الفنيقيون، والمهندسون المعماريون، والحرفيون يخدمون الفرس، كما خدموا في عدّة أماكن أخرى.

الفينيقيون هم الذين نقلوا هذه المعرفة إلى الإغريق لإنشاء لغتهم الخاصة ومن ثم تعميم استعمال هذه الأحرف.

أسطورة الأميرة أوروبا تتحدث عن رحلة قدموس إلى اليونان والتقدم الثقافي الذي عرضه على سكان المنطقة في مقابل الحصول على معلومات بشأن خطف شقيقته. هذه الأسطورة تتناسب مع الواقع التاريخي الذي ذكره المؤرخ اليوناني هيرودوت، حيث أشار: "إن الفينيقيين وصلوا [إلى اليونان] مع قدموس [...] وروًجوا الأبجدية عند الإغريق، التي لم يكن هؤلاء، كما أعتقد، على علم بها". بعد عدة قرون وفي العصر الروماني، ذكر المؤرخ بليني هذا الموضوع قائلا: "إن الشعب الفينيقي لديهم مجد اختراع الحروف الأبجدية."

بعض علماء ومؤرخي العصور القديمة عارضوا هذا الرأي واعتمدوا ان دور الشعب الفينيقي اقتصر على تعميم الأبجدية. في القرن الأول قبل الميلاد، ثيودوروس الصقلي نقل عن أراء الشعب الكريتي: "ضد أولئك الذين يقولون أن السوريين اخترعوا الحروف الأبجدية والفينيقيين، بعد تعلمها، أحالتها إلى الإغريق[.] فقالوا [الكريتيين] أن اختراع الأبجدية لا يعود في الأصل إلى الفينيقيين، لكنهم غيروا فقط شكل العلامات"(1).

بناء على هذه الآراء، يبدو واضحا أن استعمال ونشر الأبجدية يعود إلى الفينيقيين. عبر التاريخ الكثير من الأدلة والكتابات تعترف بهذه الحقيقة، لكن هناك بعض الاختلافات في الرأي حول دورهم الفعلي، فاعتبر بعض المؤرخين إن اختراع الأبجدية يعود للشعب الفينيقي والبعض الأخر يعتمد بان الفينيقيين كانوا مجرد وسطاء حيث تعلموا الأبجدية من حضارات سابقة وحسنوها ومن ثم نقلوها إلى الإغريق، مما ساعد على إعطاء هذه الأبجدية شكلها النهائي الذي هو اصل جميع اللغات المتداولة حاليا.

في مواجهة هذه الحقيقة التاريخية، المثيرة للجدل إلى حد ما، من الواجب النظر في هذه المسألة على ضوء الاكتشافات الأثرية التي ولا بد ألا أن تقدم إجابات أكثر عقلانية وعلمية لهذه الموضوع.

أنظمة الكتابات القديمة في الشرق الأوسط

عموم الحضارات القديمة التي ازدهرت في أنحاء البحر الأبيض المتوسط، استخدمت أنظمة خاصة بها للكتابة، على رغم هذه المناهج المختلفة، استندت جميعها على أشكال تصويرية كالهيروغليفية او المسمارية...

بين الأكثر تمثيلا سوف نتناول ثلاثة منها:

في مصر، كان النظام المستخدم في وقت الفراعنة مكون من مئات الصور التوضيحية (للرجال والنساء في مختلف المواقف، والحيوانات والنباتات والكائنات)، البعض له أهمية ايديوغرافية فقط، أما الآخر فقيمته ايديوغرافية أو لفظية تقتصر على حرف أو اثنين أو ثلاثة من الحروف الساكنة. هذه الكتابة المصرية نُقِشَتْ على نطاق واسع على الآثار ومعروفة بالهيروغليفية (من اليونانية hieros: المقدسة وglyphein: الحفر). من ثم استُعْمِلت نماذج مخطوطة على أوراق البردي واطلق عليها اسم "الهيراطيقية" (hiératicos من اليوناني) أو "الكتابة الكهنوتية" والتي كانت مخصصة للمعابد.

في بلاد ما بين النهرين، أقدم الكتابات تعود إلى عهد السومريين (الألف الرابع والثالث ق.م). رغم اعتماد علامات تصويرية مماثلة لما كان عليه في مصر، تم تبسيط هذه الرسوم لتتكون من شبكة خطوط في شكل مسامير أو أسافين ومن هنا جاء اسم "المسمارية". بالنسبة للفظ، هذه العلامات تمثل على حد السواء الأحرف الساكنة والمقاطع الصوتية، وذلك لأن اللغة السومرية أعطت نفس الأهمية لأحرف العلة كما هو من الحروف الساكنة. استمر استعمال هذا النظام من قبل الحضارات التي تعاقبت بعد السومريين (كالأكاديين والأشوريين والبابليين) مع بعض التعديلات لتكييفه مع لغاتهم. في العصر البابلي ومع امتداد وانتشار إمبراطوريتهم، استُخْدِمَ نظام الكتابة المسمارية كلغة ثقافية وفي العلاقات الدولية.

في جزيرة كريت تم اختراع كتابة اعتمدت على الأصوات، حيث العلامات المعزولة كانت تمثل مقاطع لفظية. ميز السير آرثر إيفانز، من اكبر المتخصصين في الحضارة الكريتية، أربعة أنظمة مختلفة تلاحقت عبر السنين:

الهيروغليفي "A" أو الأولية (٢١٠٠ -١٩٠٠ ق.م.).

الهيروغليفي "B" (١٩٠٠ـ١٧٥٠ ق.م.).

الخطي "A" (١٦٦٠ـ١٤٥٠ ق.م.).

الخطي "B" (١٤٥٠ - ١٢٠٠ ق.م.).

حتى الان لم يتم فك هذه الرموز بكاملها.

في تلك العهود، كانت المدن الفينيقية، كمعظم الساحل الشرقي من البحر المتوسط، حينا تحت السيطرة المصرية واحيانا في ظل حضارات بلاد ما بين النهرين. مع هذا الوضع، تعرضت المنطقة إلى تأثيرات ثقافية مختلفة حسب الوجود العسكري أو النفوذ السياسي، فوُجِدَ عدد من الوثائق المكتوبة بالخط المسماري أو المصري والتي يعود تاريخها إلى الألفية الثالثة ق.م.. في القرون الأولى من الألفية الثانية، ونتيجة الوضع السياسي في المنطقة، حصلت المدن على بعض من الاستقلالية والحكم الذاتي فسعت لتطوير نظام خاص للكتابة. على الرغم من استمرار استعمال النظام المسماري (الكتابة البابلونية) كلغة ثقافية وفي التبادل الدولي، شعرت هذه المدن على الحاجة إلى تحسين الكتابة واستبدال الأنظمة المصرية والبابلية بأنظمة اقل تعقيدا وصعوبة في التعليم، فتمت محاولات متعددة في أماكن وأوقات مختلفة، من أجل ابتكار كتابات جديدة ومبسطة واستعمال الأوراق على حساب الألواح.

ألواح الكتابة المسمارية في أوغاريت: اكتشفت في أواخر عام ١٩٢٠ في موقع رأس شمرا الحالية، على الساحل السوري، في الجزء الشمالي من فينيقيا. يعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. أسلوبها قريب من الكتابة المستخدمة في بلاد ما بين النهرين. الألواح كانت مصنوعة من الطين، الكتبة استخدموا أبجدية مسمارية(2) مكونة من ثلاثين شكلاً. ثراء النصوص تكمن في تنوعها (نصوص دبلوماسية، معاهدات تجارية، مستندات قانونية، الخ). بعض الباحثين يعتمدون أن مدينة أوغاريت كانت تحت تأثرات الكتابات السابقة وهذا بسبب موقعها الجغرافي على مفترق الطرق بين القوى المهيمنة في ذلك العهد وعلاقاتها الدبلوماسية والتجارية.

ولكن هل من الممكن أن نفترض أن أحد هذه الأنظمة هو المصدر المباشر للأبجدية الفينيقية؟

النظامين الأولى هي، حتى الآن، لم تحلل ألا جزئيا، في حين الثالث يرتكز على علامات مسمارية. لا يمكن إنكار أن الأبجدية الفينيقية كانت مستوحات من هذه الأنظمة الثلاثة ولكن مع الكثير من التحسينات لتصبح أكثر لفظية من تصويرية، وأدائها مقابل أنظمة الكتابات القديمة يعود إلى العدد الأقل من الأحرف لتصبح سهلة باستعمالها وترويجها.

فهل هناك فعلا اتصالا أكثر مباشرة؟ فك شفرة كاملة لهذه الأنظمة لربما أن تسلط الضوء على هذا الرابط "الوراثي".

أشار ريمون ويل(3): "إن الفينيقي وحده من بين منافسيه، يجب ان يعيش ويضمن ثروته في هذا العالم والى القرون التالية، ولكن ما ينبغي لنا أن نستنتج من هذا التعدد، او من تقنية الاختراعات عامة ؟ ببساطة يبدو أن فكرة هذا الاختراع نضجت في بلد متوسطي وسامي متحضر، وظهر المبدأ في كل أنحاء المنطقة السريانية الفلسطينية، وأن هذه الأنظمة كانت على وشك أن ترى النور من دون انتظار، كل واحد بدوره، في نقاط مختلفة، على أشكال متنوعة حسب الظروف والتأثيرات المحلية ووفقا لبراعة وخيال هؤلاء المخترعين".

* **الأبجدية الفينيقية**

تتكون الأبجدية الفينيقية من ٢٢ حرفا (الحروف الساكنة) وتكتب، مثل العربية والعبرية، من اليمين إلى اليسار. تم كشف سرها في عام ١٧٥٨ من قبل الأب بارثولوميو احد علماء عصر التنوير الفرنسي. لفك التشفير، درس الأب بعض النصوص المنقوشة في اللغتين اليونانية والفينيقية التي وجدت في جزيرة مالطا فضلا عن الكتابات المسجلة على عملة مدينة صور. فأبتدئ في دراسة وتحليل الأسماء من اجل الحصول على الأحرف القليلة الأولى. وعلى افتراض أن اللغة الفينيقية قريبة من العبرية وأن هذه الأبجدية تحوي ٢٢ حرفا، ارتكز على الحروف الساكنة وخاصة تلك التي تكون بعض الأسماء كصور وملكارت وعدد من الكلمات السهلة ومن ثم قارنها مع النسخة اليونانية التي مكنته في النهاية إلى قراءة النص بكامله وتمييز جميع الحروف الفينيقية.

صعوبة فك رموز الأبجدية الفينيقية كان نتيجة عدم وجود الكثير من النصوص. النقوش المنحوتة على الحجر التي وجدت كانت محدودة، وبوجه خاص، كانت مكرسة للنصوب الملكية، والإهداءات إلى الآلهة والكتابات الجنائزية (4).

بعض النقوش تم رصدها هنا وهناك على طريق الحملات وفي مختلف المدن والمراكز التجارية التي اسسها الفينيقيون خصوصا على شواطئ البحر الأبيض المتوسط. الأكثر إثارة للاهتمام هو دراسة المراسلات والعقود أو المعاملات التجارية (القابلة للتلف مع مرور الوقت) والتي كانت السبب الرئيسي لتطوير الأبجدية ومحركها ولنشرها في جميع أنحاء العالم القديم. بعض المؤرخين اعتمدوا أن الدافع الرئيسي الذي ألهم الفينيقيين كانت الراحة التي تقدم لهم الأبجدية والخدمات المتوفرة لتسهيل معاملات الصناعيين والتجار في حساباتهم والتبادل وتيسير الاتصال مع مختلف الشعوب.

بين النصوص الأكثر شهرة، نجد نقوش حيرام ملك بيبلوس، المحفورة في العام ١٠٠٠ ق.م. من قبل ابنه على ناووس الملك الذي استعاد استخدامه. يعتبر هذا النص كأول نقش في اللغة الفينيقية، ويستخدم ١٩ حرفا من الأبجدية من أصل ٢٢، حيث الكلمات كانت مفصولة بخطوط.

بعض النقوش، على طابع ملكي، تعود إلى الفترة الفارسية وخاصة في صيدون عندما أصبحت المدينة المهيمنة من الساحل الفينيقي. ملوكها نحتوا العديد من الإهداءات لآلهتهم وسجلوا تحذيرات على مقابرهم ضد اللصوص. النقش الجنائزي على تابوت الملك إشمون عازر لا يزال واحد من الأهم والأكثر ذكرة. الأبجدية المستخدمة في صيدا كانت أكثر تقدما من تلك التي وجدت على ناووس ملك بيبلوس بضعة قرون سابقة. استخدام وسك النقود المعدنية، والتي ظهرت أيضا في ذلك العهد، أعطى الفرصة لنحت الحروف الأولى من أسماء الملوك أو أسماء المدن.

مع وصول الاسكندر المقدوني واحتلال المدن الفينيقية، حلت اللغة اليونانية كلغة مكتوبة على حساب الأبجدية الفينيقية. لكن عدد قليل من المكتوبات النادرة تشهد على استمرار استخدام الفينيقية حتى القرن الثاني والثالث ما بعد الميلاد للحفاظ على انتمائهم وهويتهم وواصلوا نقش أسماء مدنهم على عملاتهم(5).

* **انتشار الأبجدية الفينيقية**

منذ القرن العاشر قبل الميلاد، اعتمدت الشعوب المجاورة الأبجدية الفينيقية لنقوشهم ولكتابتهم الخاصة. الآراميين والعبريين، وسكان شرق الأردن طوروا هذه الأبجدية وكيفوها ليصبح لديها أشكال محلية متميزة. الكتابة الآرامية، المستخدمة من قبل السفارة الآشورية إلى جانب الأكاديين ، تم بثها ونشرها،في وقت لاحق، من قبل الفرس في جميع أنحاء غرب إمبراطورتيهم وفي مصر وساحل الأناضول حتى بلاد بابل. وشكلت خلال عدة قرون، اللغة المشتركة في الشرق الأوسط، قبل أن تحل محلها اللغة العربية مع الفتح الإسلامي.

تطور وانتشار هذه الكتابة في منطقة الشرق الأوسط والبحر الأبيض المتوسط ارتبط وبشكل مميز مع النشاط التجاري والملاحة الفينيقيين الذين جابوا البحار والمضايق للبحث عن أسواق جديدة لمنتجاتها. فوجدت الكثير من النقوش الفينيقية في جميع البلدان وأنحاء البحر الأبيض المتوسط، وذلك منذ القرن التاسع قبل الميلاد خاصة في قبرص وعلى المعالم الأثرية في حلب. وبعدها من القرن الثامن في الأناضول وسردينيا، وبلاد ما بين النهرين، في اليونان، إيطاليا، مصر، إسبانيا حتى ما بعد اعمدة هرقل...

اهم واكبر فعل في انتشار هذه الأبجدية يعود إلى قدموس حين نقلها إلى الإغريق. بعد أن فقدوا القدرة على استخدام الكتابة مع اختفاء الحضارة المسنية في أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد، اعتمد اليونانيين الأبجدية الفينيقية. وكالعديد من الشعوب، حسنوها وادخلوا عليها بعض حروف العلة لتأقلمها مع الحاجة المحلية. لذا يمكننا القول أن الأبجدية اليونانية تعتبر أول أبجدية كاملة (الحروف الساكنة والمتحركة). في وقت لاحق، نقل الأتروسكان هذه الأبجدية إلى الرومان الذين حققوا بعض التعديلات لتتناسب بشكل أفضل، مما أعطى الأبجدية اللاتينية الحالية، التي استخدمها الأوروبيون ومن بعدهم على نطاق واسع في العالم.

* **الفن الفينيقي**

حسب الدراساث العلمية والتاريخية، يعتبر الفن الفينيقي فن تركيبي. أصالته هي أبعد من أن تكون فريدة ومبتكرة، فهذا الفن متنوع، شعبي، وهو في الغالب نتيجة لمجموعة معقدة من التأثيرات في منطقة مفترق طرق العالم القديم، التي تعرضت للاحتلالات الاجنبية المتعددة والى وجود ونفوذ مختلف الحضارات المجاورة.

* الفن الفينيقي

كثيرا ما انْتُقِدَ الفينيقيين لميلهم إلى التقليد والتزوير. واتهموا، صوابا أو خطأ، لنسخ جيرانهم وعدم وجود الإبداع الشخصي. قَسًمَ جورج كونتينو، في كتابه "الحضارة الفينيقية"، الفن الفينيقي حسب فترتين زمنيتين: تبدئ الأولى مع أوائل الألف الأول قبل الميلاد، خلالها انتسب وتأثر الفن الفينيقي بالفن المصري وفن بلدان بحر ايجه، وعموما، قَلًد الحرفيون الفينيقيون الكثير من فنون العالم القديم. آما الزمن الثاني الممتد من الألف الأول قبل الميلاد وحتى نهاية العصر اليوناني الروماني، لم يكن مجرد تقليد، ولكنه كان تنسيقي، حيث أن الفينيقيون مزجوا ووفقوا للتوصل إلى إبداعاتهم وإنتاجاتهم الخاصة.

تعود بدعة الفن الفينيقي إلى تأقلمه مع مختلف الاتجاهات الفنية المتوافرة في ذلك الوقت ليتناسب مع الطلب أو الأمة الشعوب المقصودة لهذه المنتوجات. الابتكار الرئيسي في هذا الميدان هو مواءمة الفن مع الحياة اليومية، ليصبح على متناول الجميع وعلى نطاق واسع. لم يعد يقتصر الفن إلى فئة اجتماعية معينة، لكنه، على يد الفينيقيين، اصبح إنتاج عامي وشعبي الذي سَهًل عمليات التجارة والتسويق في جميع مناطق البحر الأبيض المتوسط(1).

لم تكن مجالات الفن الفينيقي مخصصة لمنطقة معينة أو لاستخدام محدود لكنها كانت واسعة، عالمية ومتنوعة. بين الفنون المعتمدة نجد الكثير من القطاعات، كعمل الزجاج والسيراميك، والمعادن، والعاج(2)، والمجوهرات وإكسسوارات التجميل والتصنيع الأرجواني، والعملات، ... دون أن ننسى قطاع العمارة والهندسة أو الفن في خدمة الإلهية والمقدسات.

* صناعة الزجاج

من أخبار المؤرخ بلينيوس القديم، يتواجد فصل عن اكتشاف الزجاج من قبل الفينيقيين. فروى عن قارب فينيقي رسي في جنوب صور، ونزل البحارة على الساحل واستعملوا بعض الكتل من نترات البوتاسيوم لحماية وتأجيج نارهم. فذابت النترات واندمجت مع رمال الشاطئ، وادت هذه العملية إلى خلق مجموعة من الأشكال الملونة ذات مظهر ملحوظ وجميل. فكان هذا أول وحي من صناعة الزجاج.

ينقسم المؤرخون حول مصدر اختراع الزجاج، فالبعض يقولون أن الفينيقيون هم وراء هذه الصناعة. أما البعض الأخر فيعزوها إلى المصريين، ويعتمدون أن الدور الفينيقي اقتصر على ترويجها في أنحاء العالم القديم. مع تطور الاكتشافات التاريخية ووفقا لأحدث النظريات والدراسات، اتضح أن منشأ صناعة الزجاج يعود إلى بلاد ما بين النهرين. وانتشر من بعدها نحو مصر، ليعود إلى مراكز الساحل المشرقي، ليتوافق مع التغيرات التاريخية والسياسية.

* اعمال يدوية من الزجاج

بين العلوم والأسطورة، من الأكيد أن الزجاجيات المصنعة والمنشورة من قبل الفينيقيين كانت مشوبة مع الألوان الغنية والزفاف وتتكون من أشكال مختلفة تبعا للحاجة أو وجهة استخدامها واستعمالها. من اجل روتين الحياة اليومية، صَنًعَ الفينيقيون الأكواب والزجاجات وقوارير المراهم. في حين صناعة الخرز الزجاجي والمعلقات كانت مخصصة للمواد الفاخرة والمجوهرات.

مع الاعتبار أن دور الفينيقيين اقتصر على العموم لتامين وضمان الاستمرارية في صناعة الزجاج، فمن الأكيد بانهم كانوا وراء اختراع طريقة الزجاج المنفوخ التي طالما كانت أخصائية صيدا. وبفضل العلاقات التجارية التي ربطت المدن الفينيقية مع سائر أنحاء العالم القديم، عُمٍمَتْ هذه الصناعة على جميع الشعوب وخاصة حوالي البحر الأبيض المتوسط.

* صناعة السيراميك

لم تتلقى دراسة السيراميك الفينيقية نفس درجة الاهتمام التي كُرٌسَتْ للفخار اليوناني. ويرجع ذلك أساسا إلى طبيعته وإلى أشكاله التي لا يمكن أن تتنافس مع جماليات الإنتاجات اليونانية الأكثر جاذبية ومهارة.

استمدت صناعة السيراميك في المدن الفينيقية مباشرة من الفخار السرياني الفلسطيني وذلك منذ نهاية العصر البرونزي. استعملت في العديد من المجالات المنزلية، التجارية أو الجنائزية. تم تقسيمها إلى شكلين كلاسيكية، ذات الرؤوس المفتوحة أو الواسعة وتلك الضيقة أو المغلقة.

تتعلق وظيفة الأوعية الفخارية على شكلها، فالمفتوحة كالصحون كانت تستخدم للأغذية والطعام، أما المغلقة كالجرار، مع فتحة صغيرة على رأسها، كانت تستعمل لحفظ ونقل السلع الغذائية أو السوائل (القمح، النبيذ، النفط، ...). الأباريق للشرب أو لصب السوائل، تتميز بشفة أو طرف مقصوص. هنالك أيضا الإبريق ذات الصنبور المرفقة إلى الجانب على طول البطن، وعند قاعدته يتواجد مصفاة. بعض الجرار كان من الممكن استعمالها في الطقوس الجنائزية، وغالبا ما تستخدم في القبور، كأواني لمراسم حرق الجثث، ومغلقة في بعض الأحيان بواسطة الصحون.

كانت المنتوجات الفينيقية من الفخاريات تحت تأثير نماذج من المراكز المجاورة (السامرة أو قبرص). البعض منها كانت مستوردة أو مقلدة، أو من إلهام غربي: كاليونان وصقلية أو من الأقاليم حيث استقر الفينيقيين أو أنشئوا مراكز التجارية، مثل سردينيا أو شبه الجزيرة الايبيرية.

* الحرف اليدوية

ما هو الشيء الأكثر جاذبية، والأخف وزنا لشحنه وبالأخص الأكثر ربحا؟ طبعا، هذا الإنتاج لا يمكن إلا أن يتعلق في كل ما يختص بالمجوهرات. عرف الفينيقيون منذ البدء أهمية هذه الحرفة ودورها الفعال في التجارة وعملوا على ترويجها وتطويرها. كان الذهب، الأفضل جودة والأغلى، من اهم المواد المستعملة والأكثر حفاظا. أما الفضة فكانت أقل استخداما بسبب تدهورها وارتداءها بمرور الزمن. وغالبا ما استخدم البرونز والأحجار الكريمة والزجاج في تكوين، تكملة وتزين هذه المجوهرات.

كانت الأشكال الزخرفية المستعملة مستوحاة في الغالب من الأسلوب المصري، الأكثر شهرة في تلك العهود والأكثر طلبا. أعطيت الأفضلية للزخارف النباتية مثل الوريدة أو زهرة اللوتس والزخارف الحيوانية مثل الجعران وأبو الهول والصقر والأسد.

* مجوهرات وزينة فينيقية

كانت الصناعات من المجوهرات الفينيقية متنوعة وعديدة المظاهر، من ابرزها الأقراط المذهبة على شكل هلال أو قرص شمسي، والأساور، والخواتم، والقلائد المزينة مع الخرز الزجاجي، والمعلقات على جميع أشكالها ...

برع الفينيقيون أيضا في الإنتاجات البرونزية ومستحضرات العاج، مع العلم أن المواد الخام لهذه الصناعتين لم تتواجد على الساحل الفينيقي بل استوردت من بعض المناطق النائية. جاء العاج من الهند من قبل الكلدانيين ومن الجزيرة العربية ومصر. أما البرونز، الذي هو عبارة عن سبيكة من النحاس المتوافر على الشواطئ الإسبانية ومن القصدير الموجود في إنجلترا، حيث انشأ الفينيقيون العديد من المدن والمراكز التجارية لاستخلاص هذه المواد ونقلوها على سفنهم واستعملوا جزيرتي مالطا وقبرص كمستودعات لحفظها قبل شحنها إلى مدنهم لتصنيعها ومن ثم استخدامها أو بيعها.

* درع وخناجر فينيقة مزخرفة

انتشر الإنتاج الفينيقي على جميع البلدان المعروفة في العصور القديمة. كان الفن في خدمة الجمال والزينة، استعمل أيضا في مجالات التجارة والخدمات، ومَثًلَ وسيلة لإثراء التجار والبحارة الذين تجولوا في جميع أنحاء البحار بحثا عن أسواق جديدة لبيع سلعهم. وغالبا ما جذبت هذه المنتجات الغزاة الطامعين بثروات المدن الفينيقية لملء قصورهم بالغنائم التي تم الحصول عليها بعد احتلالهم وفرض نفوذهم.

وضع الحرفيون الفينيقيون أعمالهم في خدمة الفنون القابلة للتكيف والخفيفة للنقل بدافع التجارة والمقايضة، ومنذ ذلك العهد ظهرت هذه الفنون "الثانوية" أو الفنون الزخرفية المسمية بال"athyumata" من قبل الإغريق(3). قيمة الغالبية من هذه المواد كانت مزدوجة، الأولى فنية بحتة، أما الثانية فباتت مرتبطة بالحاجة الفعلية والفائدة العملية في الحياة اليومية.

إنتاج الأرجوان وتصنيع المنسوجات العالية الجودة أثارت الحسد والحماس في المراكز التجارية، عند جميع المشترين الذين كانوا ينتظرون وصول السفن الفينيقية. إن ارتداء الملابس الأرجوانية لا يزال حتى اليوم، مرتبط بالطبقات الاجتماعية المتميزة. مرور الوقت وتردي حالة هذه المنتوجات عبر الدهور، لا يسمح للحفاظ على أثر مرئي في هذا المجال، الدلائل الوحيدة على هذه المصنوعات وشهرتها، تعود إلى بعض كتابات المؤلفين القدماء والوثائق التاريخية.

* **التخطيط والهندسة المعمارية**

معالم الطبيعة للشاطئ الشرقي للبحر المتوسط لم تكن بغريبة عن اختيار الإنشاءات الحضرية للشعب الفينيقي. بُنِيَتْ معظم المدن على الهضاب والنتوءات أو الجزر، على بعد مسافة قصيرة من الساحل، أو على حافة البحيرات الضحلة أو الخلجان التي تسمح مرور القوارب بسهولة. هذا النوع من المنشئات كان يؤمن للسفن أفضل الظروف الممكنة لصياغة وتحسين نظام الدفاع المناعي. هذه المواقع كانت محمية بشكل طبيعي، الجزر المحاطة بالمياه هي الأقل سهولة للهجوم أما النتوءات فتشكل سد طبيعي ومركز ملائم مرتفع يمكن أن يستوعب مبنى شديد التحصين.

كان تنظيم المستوطنة الفينيقية يدور حول هندسة ثابتة ومتناسقة. تتألف نواة المدينة من الأكروبوليس المحاط بالجدران، ومن ثم تتفرع الشوارع، وأنحاء الأحياء السكنية، والمباني الدينية وأماكن للأنشطة التجارية والصناعية.

بنيت الأماكن المقدسة، في بعض الحالات، في مراكز مخصصة من المدينة (معبد أشمون، بستان الشيخ نبوي، صيدا, أو المعبد الفينيقي في مدينة صور من نهاية الفترة الفارسية)، التي أصبحت بذلك "ركن ديني" أو "حي مقدس". أما المدافن فتواجدت غالبا خارج أماكن المعيشة، أحيانا كانت القبور تشكل حفرة أو بئر (المقبرة الملكية في جبيل) أو تارة على مظهر "dromos": مصطلح يوناني يشير إلى ممر طويل ومنحدر يؤدي إلى قبر محفور تحت الأرض

لا تزال المعلومات في هذا المجال مترددة وغير دقيقة لأنه قد تم إعاقة البحوث الأثرية عن طريق تراكم المرافق والمنشآت القديمة والحديثة. يعود فضل بعض هذه التفاصيل أساسا إلى الوثائق الأثرية من الدول المجاورة حيث تمكن المؤرخين على إعادة تخطيط ودراسة البيئة المعيشية عند الشعب الفينيقي ومدنهم. على سبيل المثل، استطاع العلماء، بفضل النقوش والرسومات الآشورية (المنحوتات الجدارية من قصر سنحاريب)، تقديم أدلة عن المباني الخاصة التي تواجدت في المنطقة، والمنازل المتعددة الطوابق مع أبواب المداخل المحاطة بالأعمدة والنوافذ ذات الدرابزين.

ولكن إذا كنا لا نعرف إلا القليل عن الهندسة الفينيقية ومنشآتهم المعمارية الحضرية، لا يمكننا أن ننسى معبد سليمان في القدس، واحدة من اهم الإنجازات والأكثر إثارة للإعجاب من العمارة الفينيقية، والذي تم بناؤه من قبل عمال صور وعلى رأسهم المهندس حيرام المعروف تحت اسم "حيرام أبي المعماري".

بالإضافة إلى التخطيط والعمارة من الممكن أن تشمل أيضا مختلف الإنشاءات الحجرية مثل المسلات، والنقوش، والتماثيل، والنعوش (ومن أشهرها نعش احيرام ملك بيبلوس أو اشمونعازر ملك صيدا) التي تأثرت بالنموذج المصري، وفي وقت لاحق، بالإلهام الفني اليوناني.